

الألفاظ والمعاني في كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم للشيخ علي بيتاي

محاضر - قسم اللغة العربية والعلوم الإسلامية
كلية التربية - جامعة كسلا.

أ. عبد الحليم إدريس محمد

مستخلص:

تأتي هذه دراسة عن الألفاظ والمعاني في كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم للشيخ علي بيتاي، ومهدت لهذه الدراسة بالحديث عن قضية اللفظ والمعنى عند علماء اللغة ومن ثم تحدثت عن نظرية اللفظ ونظرية المعنى ومن ثم تناولت نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ومن ثم قمت بتطبيق ذلك وفق نماذج من الكتاب موضوع الدراسة والهدف من هذه الدراسة هو الوقوف عند هذا الكتاب لمعرفة منهج كاتبه من حيث الألفاظ والمعاني . وتنبع أهمية هذه الدراسة من أنها دراسة توثيقية لحياة شيخ أفنى عمره في الدعوة إلى الله وخلف كتباً تحتاج إلى أن نقف عندها . وقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي حيث قمت بجمع المادة التي تحدثت عن القضية من المراجع ومن ثم حلت نماذجاً من كتاب الهداية وفق ما جمعت . ومن أهم نتائج هذه الدراسة أن منهج الشيخ من حيث الألفاظ والمعاني يشابه ألي حد بعيد منهج عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز .

الكلمات المفتاحية: الألفاظ - المعاني ، الإعجاز ، الجرجاني ، نظرية النظم

Abstract:

This comes a study on the words and meanings in the book of guidance to the straight path of Sheikh Ali Baythai, and I paved the way for this study by talking about the issue of articulation and meaning according to linguists, and then I talked about the theory of articulation and the theory of meaning, and then I dealt with the theory of systems according to Abdul Qaher Al-Jurjani, and then I applied that According to samples from the book the subject

of the study, the aim of this study is to stop at this book to know the approach of its writer in terms of words and meanings. The importance of this study stems from the fact that it is a documentary study of the life of a sheikh who spent his life in calling to God and behind books that we need to stop by. In this research, I followed the descriptive analytical method, where I collected the material that talked about the issue from the references, and then analyzed samples from the book of guidance according to what I collected. One of the most important results of this study is that the approach of the Sheikh in terms of words and meanings is very similar to the approach of Abd al-Qaher al-Jurjani in the evidence of miracles.

Keywords: words - meanings - miracles - al-Jurjani - systems theory

المقدمة :

الثَّابِتُ أَنَّ قَضِيَّةَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي شَغَلَتْ النُّقَادِ
وَالْبَلَاغِيِّينَ الْقِدَامِيَّ وَالْمُحَدَّثِينَ نَظَرًا إِلَى مَا لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ قُصْوَى فِي
تَقْدِيرِ الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ، وَبَيَانِ مَنْزِلَتِهِ. وَبِالْبَلَاغَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ لَا تَقُومُ عَلَى التَّضَادِّ
بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، بَلْ نَجِدُ أَنَّ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى هُمَا وَجْهَانِ لِحَقِيقَةٍ بَلَاغِيَّةٍ
وَاحِدَةٍ بِاحْتِسَابِ أَنَّ الْبَلَاغَةَ مَوْجُودَةٌ مِنْذُ نَشْأَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، تَمَامًا كَمَا وَجُودِ
اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى. وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى إِعْجَازٍ بَلَاغِيٍّ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي اللُّغَاتِ
كُلِّهَا؛ لِأَنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَى جَمَالِ الْعَرَضِ، وَتَخْيِيرِ اللَّفْظِ، وَإِيقَاعِ الْعِبَارَةِ، فَضْلًا
عَنْ مَعَانِيهِ السَّامِيَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَتَنْهَى عَنِ السُّوءِ، وَالشَّرِّ،
وَالْإِنْحِرَافِ، وَالْكَفْرِ، وَالْخَطَا. وَهَكَذَا بَاتَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِرَأْيِ اللُّغَوِيِّينَ الْعَرَبِ
أَفْصَحَ اللُّغَاتِ فِي الْأَصْلِ وَالْمَفْهُومِ وَالْإِصْطِلَاحِ. وَهَذَا مَا أَعْلَنَهُ "الزَّمَخْشَرِيُّ"
الَّذِي عَدَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَفْصَحَ اللُّغَاتِ، وَبَلَاغَتَهَا أَتَمَّ الْبَلَاغَاتِ هُوَ مَا أَكَّدَهُ "ابْنُ
خَلْدُونٍ" حِينَمَا بَيَّنَّ أَهَمِّيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَوْلِ: "تَفَاوُتَتْ طَبَقَاتُ الْكَلَامِ
فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الدَّلَالَةِ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّاتِ ... فَكَانَ الْكَلَامُ
الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ أَوْجَزَ وَأَقْلَ أَلْفَاظًا وَعِبَارَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَلْسِنِ. إِعْتَمَدَتِ الْبَلَاغَةُ
عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْذُ عَصْرِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَصْلِهَا السَّحَرِيِّ فِي الْإِبَانَةِ وَالتَّوْضِيحِ؛ لِأَنَّ
اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مُحْكَمَةٌ بِوُجُودِ الْمَعَانِي الْمَعْبَرِ عَنْهَا بِالْأَلْفَاظِ. فَمُعْظَمُ اللُّغَاتِ

اهتمَّت بالمعاني على حساب الألفاظ، أو اهتمَّت بالألفاظ على حساب المعاني، بيد أنَّ اللغة العربيَّة، وبسبب فصاحتها وبلاغتها وأصالتها وغناها، وعبقريَّة اللُّغويِّين، استطاعت أن تصلَّ إلى حدِّ الإعجاز الَّذي نجدهُ في القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة، وفي نظم الشعر، وكتابة النثر، وجميع فروع الأدب العربيِّ. وقد استفادت البلاغة العربيَّة من السَّعة في الاشتقاق، والمخزون الكبير من الأسماء والأفعال المترادفة في اللغة العربيَّة، وغير الموجودة في اللُّغات الأخرى. وهذه السَّعة قد تكون إحدى أساسات ظهور البلاغة للإحاطة بهذا الكنز الكبير من الاشتقاق، والترادف بأساليب بلاغيَّة متنوِّعة. وهي السَّبب أيضًا في التَّركيز على دراسة اللَّفْظ والمعنى، وعلاقتهما المباشرة بالبلاغة (1).

مدرسة اللَّفْظ :

تُعَدُّ مسألة علم اللَّفْظ والمعنى من مسائل علم الجمال الحديث، على الرِّغم من انشغال الأقدمين فيها قبل العرب. وقد تحدَّث الأقدمون عن المعايير الجماليَّة الموضوعيَّة الَّتِي تُعَدُّ من أُسس الحكم على العمل الأدبيِّ من الناحية الفنيَّة. وعليه، لم يغفل أرسطو الإشارة إلى ما بين الألفاظ ومعانيها في الجمل من صلة، ورأى أنَّ جمال الأسلوب في نظام الجملة، وفي توازي أجزائها (2) ولقد عالَج الكثيرون موضوع اللَّفْظ والمعنى من خلال تعريف الفصاحة والبلاغة، والنَّظم. "فالكلام الخالي من التَّعقيد اللَّفْظيِّ ما سلمَ نظمه من الخلل، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو إضمار أو غير ذلك، إلَّا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظيَّة أو معنويَّة لكن ثمة مَنْ نصرُوا اللَّفْظ، وآخرون نصرُوا المعنى (3). وقد قال بعضهم: "إنَّ فصاحة المتكلم، هي ملكة يُقْتَدَرُ بها على التَّعبير عن المقصود بلفظ فصيح"، وبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. "فالبلاغة صفة راجعة إلى اللَّفْظ باعتبار إفادته المعنى عند التَّركيب، وكثيرًا ما يُسمَّى ذلك فصاحة أيضًا (4) والبلاغيُّون الَّذين اهتمُّوا بحسن اللَّفْظ أو نصروه لم يقفوا عند حدود اللَّفْظ وحده، من دون مراعاة للمعنى الَّذي يدلُّ عليه اللَّفْظ، بل أشادوا بقيمة المعنى أيضًا "ورأوا أنَّ البلاغة في اللَّفْظ المختار، والمعنى المنتخَب، ومتى اجتمع فقد اجتمع الحسن من أطرافه واكتمل الكلام (5) وكان الجاحظ قد انحاز إلى اللَّفْظ في كتابه "الحيوان" إذ قال: "والمعاني مطروحة في الطَّرِيق يعرفها العجميُّ، والعربيُّ، والبدويُّ، والقرويُّ، وإنَّما الشَّأن في إقامة

الوزن، وتخثير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء وفي صحّة الطبع، وجودة السبكوتعمد مادة التعبير الأدبي على الجمال بما تشتمل عليه من ألفاظ منظومة أو منثورة يستعان بها على محاكاة الأشياء والأفعال⁽⁶⁾.

لقد اهتم القدماء "باللفظ". وهذا ما اعتنى به "أرسطو" وشرحه حين تحدّث عن تنظيم أجزاء القول في الخطابة. وحاول بعض نقاد العرب مجاراته في ذلك حين عالجوا أجناس الأدب العربي شعره ونثره؛ ولكن عنايتهم ببيان وجوه الجمال في هذه الأجناس كانت أقلّ كثيراً من عنايتهم بنقد الجملة أو الأبيات المفردة في القصيدة. وهذا فارق جوهري بين النقد العربي ونقد أرسطو؛ "لأنّ أرسطو ذهب إلى أنّ الحكم على أجزاء الجنس الأدبي لا يكتمل إلا بالنظر إلى طبيعة الجنس الأدبي والموقف بعامة. ولم يغفل الإشارة إلى ما بين الألفاظ ومعانيها في الجمال من صلة، ورأى جمال الأسلوب في نظام الجملة⁽⁷⁾ ولم يقف أرسطو طويلاً أمام اللفظ والمعنى ليرجّح أحدهما على الآخر. أمّا النقاد العرب فقد عالجوا مسألة اللفظ والمعنى على أساس المقابلة والمفاضلة بينهما. فمنهم من نظّر إلى مقوّمات العمل الأدبي فأرجعها إلى المعنى، وآخرون أرجعوها إلى اللفظ، ومنهم من ساوى بين اللفظ والمعنى، وأخيراً ثمة من نظّر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام. "والرأي الأخير أهم الآراء وأكثرها أصالة⁽⁸⁾.

إنّ انحياز الجاحظ للفظ، ألزمه انتقاد أنصار المعنى؛ لأنّ الكلام عنده يعتمد على التصوير والصياغة. وقد لاقاه "قدامة" في الفكرة نفسها بقوله: "إنّ المعاني مادة الشعر، والشعر فيها كالصورة، فلا ينبغي الحكم على الشعر بمادته، أي بمعناه؛ وإنّما يحكم عليه بصورته التي تمثّل اللفظ⁽⁹⁾ وقد ورد عن "قدامة بن جعفر" في موضع آخر انحيازه إلى اللفظ حين قال: "وأحسن البلاغة الترصيع، والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ⁽¹⁰⁾. وكذلك تطرّق ابن خلدون إلى هذه الفكرة، "إذ رأى نتيجة الاحتفال بالصياغة أنّ العبرة بالألفاظ، وأنّ المعاني تبع لها⁽¹¹⁾. وقد غني البلاغيون العرب بحسن اللفظ، وجودة السبك. "ورأوا في الافتنان بالحلية اللفظية المجال الأكبر للتجديد، إيماناً منهم بأنّ الأولين استغرقوا المعاني، أو أتوا على معظمتها، وإنّما يحصل المحدثون على بقايا تركت رغبة عنها، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها⁽¹²⁾ ولكن أكثر دعاة اللفظ، وترجيحه على المعنى، لم يغفلوا المعنى إغفالاً. ونجد أنّ أباهلال العسكري تأثّر إلى حدّ كبير بالجاحظ في انحيازه

إلى اللَّفْظِ أَوْ إلى جِهَةِ تَفْضِيلِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى، حَيْثُ وَرَدَ فِي كِتَابِهِ "كِتَابُ الصَّنَاعَتَيْنِ" قَوْلُهُ: "وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ اللَّفْظِ، أَنَّ الْخُطْبَ الرَّائِعَةَ، وَالْأَشْعَارَ الرَّائِعَةَ، مَا عَمَلْتَ لِإِفْهَامِ الْمَعْنَى فَقَطْ؛ لِأَنَّ الرَّدِيءَ مِنَ الْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ الْجَيِّدَةِ مِنْهَا فِي الْإِفْهَامِ؛ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ الْكَلَامِ، وَإِحْكَامُ صَنْعَتِهِ، وَزَوْنُ الْفَاضِلِ، وَجُودَةُ مَطَالِعِهِ، وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ... عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ؛ وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ تَرْجِعُ إِلَى الْأَلْفَاظِ دُونَ الْمَعْنَى (13)

أَمَّا "الرُّمَانِي" فَأَدْلَى بَدَلُوهُ فِي مَجَالِ اهْتِمَامِهِ بِاللَّفْظِ؛ فَيَقُولُ: "إِنَّ الْمَزِيَّةَ لَا تَكْمُنُ فِي الْمَعْنَى، وَلَكِنْ فِي صُورَةِ اللَّفْظِ، وَالْبَلَاغَةُ لَيْسَتْ فِي إِفْهَامِ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَفْهَمُ الْمَعْنَى مَتَكَلِّمَانِ: أَحَدُهُمَا بَلِيغٌ، وَالْآخَرُ عَيُّوْهُذَا التَّبْرِيرُ لِلرُّمَانِي فِي أَهْمِيَّةِ اللَّفْظِ يُؤَكِّدُ أَنَّ اللَّفْظَ هُوَ الْأَصْلُ وَهُوَ الَّذِي يَمَهِّدُ لِلْمَعْنَى الْمُتَعَدِّدَةِ لِلَّفْظِ وَاحِدٍ، وَفَقْ ثَقَافَةٍ وَمَسْتَوًى الْمُتَلَقِّي لِلْأَلْفَاظِ (14)

نظريّة النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ:

لقد اهتمَّ عبدُ القاهرِ الجرجانيُّ بشرحِ دلالاتِ الألفاظِ، واختلافِها باختلافِ مواقعِها في الجُمْل. والنّظْمُ لا يظهرُ في الكلمةِ إلّا بحسبِ موقعِها في الجملةِ، وبهذا الموقعِ تتأثّرُ الصُّورةُ الَّتِي يهدفُ الأديبُ إلى رسمِها. "وكذلك الجملةُ لا يبيّنُ حُسْنَ نظمِها إلّا إذا ائتلفتْ بدورها معَ جاراتِها وما تهدفُ إليه هذه الجملةُ من معنى، ليتألّفَ من مجموعِ الجمَلِ صورةٌ أدبيّةٌ كاملةٌ ومن دونِ هذا لا يكونُ الكلامُ جيّدًا في نظمِهِ (15). وقد عدَّ الجرجانيُّ أن النّظْمَ هو مدارُ الحُسْنِ، "متميِّزٌ عن المعنى في ذاته مجرّدًا، وعن اللَّفْظِ في ذاته منفردًا؛ إِنَّمَا صِيَاغَةُ الْكَلَامِ فِي جَمَلٍ مَتَازَرَةٍ عَلَى جَلَاءِ الصُّورَةِ الْمُرَادَةِ بِالْأَلْفَاظِ مِنْ حَيْثُ هِيَ الْفَاضُ لَا يَتَصَوَّرُ حُسْنُهَا إلّا فِي خُلُوقِهَا مِنَ الْغَرَابَةِ، وَالتَّنَافُرِ فِي النُّطْقِ. أَمَّا الْاسْتِعَارَاتُ وَالْمَجَازُ وَالْمَحْسِّنَاتُ الْبَدِيعِيَّةُ فَمَعَ جَرَيَانِهَا فِي الْأَلْفَاظِ، لَا يَظْهَرُ حُسْنُهَا إلّا إِذَا رَاعَيْنَا فِيهَا وَجُوهَ الْجَمَالِ فِي الصِّيَاغَةِ وَالتَّصْوِيرِ. (16) وهكذا تصلُ إلى تَأْلِيْفِ الصُّورَةِ الْأَدَبِيَّةِ فِي "مَعْنَى النّظْمِ". وقد ترجعُ أَهْمِيَّةُ الْاسْتِعَارَةِ إِلَى اللَّفْظِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى الْمَجَازِ، دُونَ نَظْمِ الْكَلَامِ. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا قِيَمَةَ لَهَا إلّا فِي حُسْنِ مَوْقِعِهَا مِنَ الْجُمْلَةِ فِي الصِّيَاغَةِ. وَلَكِنْ النّظْمُ غَالِبًا مَا يُضِيفُ إِلَى جَمَالِهَا، إِذَا كَانَتْ بِالْغَاةِ الْإِحْكَامَ. وَأَخِيرًا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ صِيَاغَةَ النّظْمِ هِيَ الَّتِي تَوَثَّرُ فِي الصُّورَةِ الْأَدَبِيَّةِ. وَإِنَّمَا يُعْنَى بِاللَّفْظِ فِي النّظْمِ لِتَأْلِيْفِ أَجْزَاءِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي لَا تَكْتَمِلُ إلّا بِدَقَّةِ الصَّنْعِ فِي ذَلِكَ النّظْمِ، وَبِاخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ، وَوَضْعِهَا فِي

مواضعها الملائمة في الجمل. والجرجاني لم يُضِفْ إلى مفهوم النظم الذي سبقه إليه النُحاة شيئاً جديداً؛ بل جعلَ من هذا المفهوم إطاراً عاماً تدورُ حوله البلاغة كلها بأبوابها وفصولها. فالبلاغة عنده أولاً وأخيراً هي النظم، سواءً أكانَ هذا النظم حافلاً بالمجاز أم لا. وذلك لا يكونُ سبباً في حسن الكلام أو قبحه، إنما مرَدُّ الحسن أو القبح إلى النظم، وتركيب الكلام واتِّلاف بعضه مع بعض. وهذا ما أكَّده الجرجاني بقوله: "النظم في توحي معاني النحو" (17).

مدرسة المعنى:

عدَّ أرسطو الكلمات رموزاً للمعانيوجمال الكلمات وقبحها ينشأ عن جرسها أو معناها. وما الكلمات إلا دلالات على المعنى. فمن الكلمات ما هي أصدق في وصف الشيء من كلمات أخرى، وألصق بالمعنى، أو أكثر تمثيلاً له أمام العيونوقال أرسطو: "يمكن أن نعدَّ كلمةً أجملَ من الأخرى، أو أقبحَ منها؛ إذ إنَّ الكلمتين تؤدِّيَانِ معنى الجمال، أو معنى القبح، ولكنَّهما لا تؤدِّيَانِ مجردَ معنى الجمال أو القبح، حتَّى لو اقتصرت على مجردِ هذا المعنى؛ فإنَّ الكلمتين لا تؤدِّيَانِه أبداً بدرجةٍ واحدة. فلكلمات المجاز يجبُ أن تكونَ جميلةً في الأذن، وفي الفهم، وفي العين، وكلُّ حاسَّةٍ من الحواسِّ الأخرى (18)

إنَّ انقسام نقاد العرب حول مسألة اللَّفْظِ والمعنى، كانَ طبيعياً، ومنهم من نظرَ إلى مقوِّمات العمل الأدبيِّ فأرجعه إلى المعنى. ويبدو أنَّ "أبا عمر الشَّيباني"، في ما رواه الجاحظ. "كان لا يحفلُ إلا بالمعنى. فمتى كان المعنى رائعاً حسناً، ظلَّ كذلك في أيَّة عبارة وضعَ فيها وقد اعتبر "الخطيبُ القزوينيُّ" أنَّ البلاغة صنعةٌ راجعةٌ إلى اللَّفْظِ باعتبارِ إفادته المعنى وأنَّ الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصافٌ راجعةٌ إلى المعاني، وإلى ما يُدُلُّ عليه بالألفاظ دون الألفاظِ نفسِها وكلُّ ما يحترزُ به عن الخطأ هو علمُ المعاني. وكلُّ ما يحترزُ به عن التعقيدِ المعنويِّ هو علمُ البيانوأكثر الذين تعصَّبوا للمعنى، هو "ابن جنِّي" في كتابه "الخصائص" حيثُ قال: "إنَّ العربَ كما تُعْنَى بالألفاظِها، فتصقلُها، وتهذَّبُها، وتلاحظُ أحكامها، بالشَّعرِ تارةً، وبالخطِّبِ أخرى... فإنَّ المعاني أقوى عندها، وأكرمُ عليها، وأفخمُ قدرًا في نفوسِها... فإذا رأيتَ العربَ قد أصلحوا ألفاظها وحسَّنوها فلا تَرَيَنَّ أنَّ العنايةَ إذ ذاك إنما هي بالألفاظِ، بل هي عندهم خدمةٌ منهم للمعاني، وتنويهٌ بها، وتشريفٌ منهاوهذه هي وجهةُ النظرِ التي تقول: إنَّ الألفاظَ تخدمُ المعاني التي تحملها.

والمعاني أكرمُ قدرًا، وأرفعُ شأنًا، والشَّأنُ كُلُّ الشَّأنِ للمعاني. كذلك فعل "الشَّريفُ الرُّضي" الَّذي انحازَ إلى المعاني، بقوله: "إنَّ الألفاظَ خدَمُ للمعاني؛ لأنَّها تعملُ في تحسينِ معارضِها، وتنميقِ معارفِها وقد اتفق "المرزوقي" مع "الشَّريف الرُّضي" عندما "اعتبر الشُّعرَ عمليَّةَ إفراغٍ للمعنى في وعاءِ الجاهزِ لكي يتمَّ لهما التَّناسبُ والاتِّلافُ؛ ومتى توافقا، وتعانقا لمع نورِ البلاغةِ، وأمطرَ روضُها، ونُثرَ وشيُّها، وتجلَّى البيانُ، وسطعَ البرهانُ."⁽¹⁹⁾

وقد ذهب إلى نفس المذهب "الآمدي"، إذ يذكرُ من امتدحوا أبا تمام فقالوا: "إنَّ اهتمامَه بمعانيه كانَ أكثرَ من اهتمامِه بتقويم ألفاظِه، على كثرةِ غرامِه بالطَّباقِ، والتَّجنيسِ، والمائلةِ وقد كان "الآمديُّ من أشدَّ أنصارِ المعنى، فالكلامُ بالنسبةِ إليه هو المعنى، والمزيَّةُ"⁽²⁰⁾

مدرسةُ النُّظم: اتِّلافُ اللَّفْظِ والمعنى:

لقد أطلق "الجرجانيُّ" على اتِّلافِ اللَّفْظِ والمعنى، مصطلحَ النُّظم حيث يقول: "النُّظم تأخى معاني النَّحوِ في ما بينَ الكلمِ على حسبِ الأغراضِ الَّتِي يُصاغُ لها الكلامُ"⁽²¹⁾ وكثيرون هم العلماءُ، والنُّقادُ الَّذين لم يميلوا إلى الرأْيِ القائلِ بترجيحِ اللَّفْظِ وحده، أو المعنى وحده، بل ذهبوا إلى التَّسويةِ بينهما. فاللَّفْظُ والمعنى وحدةٌ لا تتجزَّأ، ولا يقومُ أحدهما من دون الآخر. فالعملُ الأدبيُّ كائنٌ حيٌّ، ولا يكونُ عملًا فنيًّا إذا فصلنا المعنى عن اللَّفْظِ؛ لأنَّ ذلك بمنزلةِ فصلِ الرُّوحِ عن الجسدِ.⁽²²⁾ وممَّن يسوِّي بين اللَّفْظِ والمعنى "ابن قتيبة"، فخيرُ الشُّعرِ عنده ما حَسُنَ لفظُه، وجاءَ معناه؛ فإذا قصرَ اللَّفْظُ عن المعنى، أو حلا اللَّفْظِ، ولم يكن وراءَه طائلٌ، كان الكلامُ معيَّاثمَّ يعتبرُ "ابن قتيبة" أنَّ علاقةَ اللَّفْظِ بالمعنى كعلاقةِ الرُّوحِ بالجسدِ من خلالِ قوله: "وللكلامِ جسدٌ وروحٌ، فجسدهُ النُّطقُ (أي اللَّفْظُ) وروحهُ معناه"⁽²³⁾

أمَّا عبدُ القاهرِ الجرجانيُّ، فقد أبدى انزعاجَه ممَّن قدَّروا اللَّفْظَ وقَدَّموه على المعنى. وكذلك ممَّن أَمَرُوا بميزةِ المعاني على حسابِ الألفاظِ. بل المعوَّلُ عنده هو على النُّظم والأسلوبِ والصِّياغة. وكان يرى خطرًا من النَّاحيةِ النَّقديةِ على الَّذين انحازوا إلى أيِّ من اللَّفْظِ أو المعنى "كابن قتيبة"، وابن طباطبا، وابن رشيق، والقيرواني وغيرهم، بحيث إنَّ الانحيازَ لِلَّفْظِ أو للمعنى يؤدِّي إلى قتلِ الفكرِ. وهو القائل: "لا يكونُ الكلامُ يستحقُّ اسمَ البلاغةِ حتَّى يسابقَ معناه"

لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك وقد أبدى الجرجاني رأياً متقدماً عندما قال: إِنَّ إعجاز القرآن لا يتصور أن يكون في الألفاظ منفردة... فلا جمال إذن في اللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، وإنما يكون ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب (24)

فالبلاغة ثنائية التكوين وخصوصاً في مجال النظم؛ "لأنها تقوم على عنصرَي المعنى والمبنى؛ ومن تألفهما نحصل على أساليب الأدباء، وبهما يتمايز الشعراء، والناقد الفذ من عرف سرَّ التعبير الفني الرفيع (25).

تعريف بكتاب الهداية إلى الطريق المستقيم :

كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم كتاب عبّر فيه مؤلفه الشيخ علي بيتاي تعبيراً واضحاً لما يحتاجه المؤمن في مسيرة حياته إرشاداً وتوجيهاً في أمور الدين والدنيا والكتاب في حد ذاته عبارة تجربة روحية ودعوة صريحة لإنقاذ المؤمنين والمؤمنات من الجها والعبودية. ويعتبر كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم تجديد في أسلوب الدعوة بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتي هي أحسن والواقع أن الكتاب صورة صادقة لدعوة كتب الله لها النجاح (26) والكتاب يترأى للنّاظر أنه صغير في مبناه والواقع أنه كبير في معناه عظيم في أسلوبه سهل في عباراته (27) وقد جاء الكتاب تحت عناوين غاية في الأهمية في أمور الدين والدنيا حيث تناول بداية الدعوة وعمومها وخصص باباً للحديث عن معرفة الله والتوكل عليه ثم وصف الكتاب رحلة للشيخ إلى إرتريا في سبيل الدعوة ، واشتمل الكتاب كذلك على عدد من الوصايا منها وصية التقوى ، والدعوة إلى الإتحاد وعدم التنافر ووصية الطرائق ونصيحة في الهدية ومجموعة أخرى من الوصايا كما أفرد صاحب الكتاب باباً كاملاً لرسالة التربية والتعليم وآخر في الأخلاق وما حصل لكاتب الكتاب من مشاهدات وتسخير وعمل صالح وقصة تواجهه بالمنفى وبعضاً من أقواله ومزياه وكراماته.

تعريف بمؤلف الكتاب :

هو الشيخ علي بيتاي ولد من أبوين كريمين عام 1930 م في يوم الأربعاء 21 سبتمبر في منطقة همشكوريب بمديرية كسلا وتوفي أبوه بعد أن بلغ من العمر أربع سنوات وقد كان أهله عرباً رحلاً ولما بلغ السادسة من عمره صار يرى الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت الريا مستمرة ليلاً

ونهاراً ولما بلغ السابعة عشر من عمره دخل في غيبوبة لم يفق منها إلا بعد ثلاث سنوات بعدها رأى الرسول صلى الله عليه وسلم مناماً فوق الجبل الذي لجهة القبلة لمسجد همشكوريب وقال له : أمتي أمتي ورددها سبع مرات آمنوا حاضرهم ونسوا آخرتهم قل لهم توبوا إلي الله واقرأوا القرآن وأمسكو التهليل وعين لي مكان المسجد بالوقوف فيه وقال له : أعطيتك إرشاد القرآن فدخلت خشية الله في قلوب الناس . ولما ظهرت مقاومة الإستعمار قالوا أن الرجل مُدعي النبوة وكان ذلك عام 1954 فأخذه للتحقيق ووضع في السجن ثم الزنزانة ثم المنفى من عام 1954 — 1960⁽²⁸⁾

الألفاظ والمعاني في كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم :

كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم كتبه كاتبه بلغة بسيطة تفهمها الخاصة والعامة وذلك لأن الكتاب في الدعوة والإرشاد وجب أن يكون بهذه اللغة فالألفاظ التي أختارها الشيخ في كتابه ألفاظ غاية في السهولة والبساطة تصلح لكي نخطب بها الخاصة والعامة وهي ألفاظ خالية من الغريب فكل الكلمات التي استخدمها الشيخ في هذا الكتاب كلمات مألوقة تؤدي غرضاً مهماً وكأنما الكلمات كانت تقف بشخصها بين يديه فيختار منها ما يناسب المعنى الذي يرمي إليه .

فلو أننا ألقينا نظرة على رسالته في التربية والتعليم على سبيل المثال لا الحصر نجده يقول : (وعن التعليم فقد كان المواطنون بأنفسهم منه رغم أن الواقع أثبت جدواه وإن تركه من أكبر الفدائح فدعونا إلي التعليم جنباً إلي جنب مع نار القرآن وقد رأينا أن يتعلم البنون والبنات على حد سواء وشتان ما بين متعلمة وجاهلة لا يستوي الأعمى والبصير إذ الجاهلة ترى العيب شرفاً وتضيع شرفها وشرف قومها من أجل لقمة عيش ولا تربي أطفالها تربية دينية سليمة ولا تستحي إلا من أوليائها ولا تتعفف ولا تخاف حساب الآخرة⁽²⁹⁾).

بهذه العبارات الموجزة المتأثرة بألفاظ القرآن الكريم شجع الشيخ علي بيتاي على التعليم للجنسين والعبارات مع أنها موجزة تحمل تشديداً أكبر على ضرورة تعليم البنات لمعرفته بالمجتمع الذي عاش فيه إلا أنها تحمل معاني كثيرة أفلا نرى في وصفه للمرأة الجاهلة أو للجاهل عموماً ذكر كان أم أنثى ومقارنته بالمتعلم مأخوذاً من قوله جلّ وعلا : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ

اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنَّنِي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ -- الأنعام الآية 50

فالشيخ لكونه داعية جل معانيه إن لم يكن كلها مأخوذة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ويقول في موضع آخر في الكتاب : (إن لساني يحاول أن يفلت مني وأن يجرح قلوب الأمة وجرح القلب لا يبرأ أحذركم منها وما رأيت في حياتي عدواً أكبر منها (30) فبهذه العبارات الموجزة قصد الشيخ معنى أن فقدان الورع في القول وإطلاق اللسان والبليّة بالعجلة سبب الهلاك ومظنة العطب ، والعاقل يدرك أن ما قيل لا يرد فكيف وقد قيل ؟ وأما ما لم يقله المرء فهو مخير بين امساكه واطلاقه. ومجمل القول أن كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم متأثر بألفاظ وأساليب القرآن الكريم ومعانيه مستوحاة من معاني القرآن وأن كاتب الكتاب الشيخ العارف بالله كان على درجة من اللسن والفصاحة مكنته من أداء رسالته التي أراد أن يرسلها على الوجه الأكمل كما أن الكتاب يسهل فهمه وذلك لسهولة الألفاظ التي اختارها الشيخ لأداء رسالته فكل الألفاظ التي اختارها الشيخ خالية من تنافر الحروف والغرابية وجارية على الميزان الصرفي وهذه الثلاث هي شروط فصاحة الكلمة ثم أن الشيخ ركب من هذه الكلمات جملاً توافرت فيها شروط فصاحة الكلام مما مكنه على أداء رسالته على أكمل وجه والذي أعانه على ذلك حفظه للقرآن الكريم لأن المقوم الأول للسان هو القرآن . والواضح من منهج الشيخ في كتابه أنه سلك طريقاً كالذي سلكه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الأعجاز فألف بين ألفاظه ومعانيه ولم يهتم باللفظ دون المعنى ولا المعنى دون اللفظ والذي أسعفه على ذلك بديهته الحاضرة ومعرفته بالقرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . ولأن أغلب موضوعات الكتاب إن لم يكن كلها في الدعوة إلى الله والوعظ والإرشاد وارتبطت هذه الموضوعات بمعرفة الشيخ وتفقهه في الأمور الدينية فكان النتاج هذا التآلف بين الألفاظ والمعاني وذلك لأن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من اسرار اللغة العربية التي قلّ من تنبّه لها. والمعلوم أن للحرف في اللغة العربية إحياء خاصاً، فهو ان لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى، يدلّ دلالة اتّجاه وإحياء، ويثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى، ويوجه إليه ويوحى به وهذه المعاني تتبادر إلى الذهن ونحن نقرأ كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم وما أوردته من أمثلة هو نذر من فيض ولو أخذت في النقل لتهدت من وسع هذا الميدان .

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فهذه دراسة عن الألفاظ والمعاني في كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم للشيخ علي بيتاي، بدأت الدراسة عن الحديث في قضية اللفظ والمعنى عند علماء اللغة العربية، خاصة نظرية اللفظ ونظرية المعنى، ومن ثم تحدثت الدراسة عن نظرية النظم عند العلم الغوي الكبير عبد القاهر الجرجاني، وتم تطبيق هذه النظرية على نماذج من كتاب الهداية للطريق المستقيم للشيخ علي بيتاي، حيث وقفت على كتاب الشيخ علي بيتاي وعرفت به، ومن ثم بينت منهج الشيخ علي بيتاي في كتابه هذا من حيث الألفاظ والمعاني، وذلك بعد جمع المادة التي تحدثت عن القضية من المراجع، ومن ثم تحليل النماذج المختارة من كتاب الهداية للطرق المستقيم وفق المادة التي جمعت.

ولا أدعي لبحثي هذا الكمال ولكنه مجرد محاولة لمعرفة منهج الشيخ من خلال استخدامه للألفاظ ومدلولاتها من خلال كتابه الهدية إلى الطريق المستقيم والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

النتائج :

توصلت الدراسة لعدد من النتائج وهي:

- أن قضية اللفظ والمعنى والمدلول اللغوي من القضايا التي شغلت العلماء زمنًا طويلاً ودرسوها باستفاضة وقعدوا لها النظريات .
- عالَجَ الكثيرون العلماء موضوعَ اللَّفْظِ والمعنى من خلال تعريفِ الفصاحةِ والبلاغةِ، والنَّظْمِ، وهذا ما حاول الباحث تطبيقه على كتاب الهداية للطريق المستقيم.
- أن منهج الشيخ علي بيتاي من حيث الألفاظ والمعاني يشابه ألي حد بعيد منهج عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز .
- عبّر كتاب الهداية تعبيراً واضحاً لما يحتاجه المؤمن في مسيرة حياته إرشاداً وتوجيهاً في أمور الدين والدنيا والكتاب في حد ذاته عصارة تجربة روحية ودعوة صريحة لإنقاذ المؤمنين والمؤمنات من الجها والعبودية.

- يعتبر كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم تجديد في أسلوب الدعوة بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والتي هي أحسن والواقع أن الكتاب صورة صادقة لدعوة كتب الله لها النجاح .
- أن كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم كتبه كاتبه بلغة بسيطة اختارها الشيخ لكي يخاطب بها الخاصة والعامة وهي ألفاظ خالية من الغريب فكل الكلمات التي استخدمها الشيخ في هذا الكتاب كلمات مألوفة تؤدي غرضاً مهماً وكأنما الكلمات كانت تقف بشخصها بين يديه فيختار منها ما يناسب المعنى الذي يرمي إليه .
- أن كتاب الهداية إلى الطريق المستقيم متأثر بألفاظ وأساليب القرآن الكريم ومعانيه مستوحاة من معاني القرآن كما أن الكتاب يسهل فهمه وذلك لسهولة الألفاظ التي إختارها الشيخ لأداء رسالته فكل الألفاظ التي اختارها الشيخ خالية من تنافر الحروف والغرابة وجارية على الميزان الصرفي وهذه الثلاث هي شروط فصاحة الكلمة ثم أن الشيخ ركب من هذه الكلمات جملاً توافرت فيها شروط فصاحة الكلام مما مكنه على أداء رسالته على أكمل وجه والذي أعانه على ذلك حفظه للقرآن الكريم لأن المقوم الأول للسان هو القرآن .
- الواضح من منهج الشيخ في كتابه أنه سلك طريقاً كالذي سلكه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الأعجاز فألف بين ألفاظه ومعانيه ولم يهتم باللفظ دون المعنى ولا المعنى دون اللفظ والذي أسعفه على ذلك بديهته الحاضرة ومعرفته بالقرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

الهوامش:

- (1) د. حامد حامد ، البلاغة بين اللفظ والمعنى ، مجلة أوراق ثقافية العدد التاسع 2020م.
- (2) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ص 42 .
- (3) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ص 5 .
- (4) المرجع السابق ص 7 .
- (5) المرجع نفسه ص 73 .
- (6) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة مصورة ص 131.
- (7) أرسطو ، الخطابة ، الكتاب الثاني ص 2 .
- (8) د. حامد حامد ، البلاغة بين اللفظ والمعنى ، مجلة أوراق ثقافية العدد التاسع 2020م.
- (9) قدامة بن جعفر، جواهر الألفاظ ، تحقيق محمد عبد الحميد ، بيروت دار الكتب العلمية ط 1 ص 18.
- (10) المرجع السابق ص 3.
- (11) (ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة مصورة ص 528.
- (12) الجرجاني ، علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي القاهرة ص 14
- (13) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي القاهرة مطبعة عيسى البابي 1971 ص 12
- (14) الرُّماني ، النكت في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام مصر دار المعارف ص 120
- (15) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز م.س ، ص 64
- (16) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة القاهرة طبعة محمد بشير رضا 1939 ص 283
- (17) المرجع السابق ص 321.
- (18) أرسطو ، كُنْاب الخطابة الكتاب الثالث ، الفصل الثالث ص 15 .
- (19) د. حامد حامد ، البلاغة بين اللفظ والمعنى ، مجلة أوراق ثقافية العدد التاسع 2020م.
- (20) الآمدي ، الموازنة بين أبو تمام والبحري القاهرة 1956 ص 389

- (21) حامد حامد ، البلاغة بين اللفظ والمعنى ، م.س 2020م.
- (22) ابن قتيبة الدينوري ، الشعر والشعراء تحقيق مفيد قميحة ، بيروت دار الكتب العلمية ط 2 1985 ص 3 .
- (23) حامد حامد ، البلاغة بين اللفظ والمعنى ، م.س 2020م.
- (24) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز م.س ص 182 .
- (25) المرجع السابق ص 52.
- (26) الشيخ علي بيتاي ، الهداية إلى الطريق المستقيم ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ط 2 1996 ص 7 .
- (27) المرجع السابق ص 8 .
- (28) المرجع نفسه ص 17 .
- (29) الشيخ علي بيتاي ، الهداية إلى الطريق المستقيم م.س ، ص 44 .
- (30) المرجع السابق ص 62